أيُّها المُتَدارَكُ كَيفَ أحيطُ بهَذا الضَريح!

محمد القيسي

مُنذُ أَوَّلِ هَذا القَطَا
وَالرُّواقِ البَعيدِ هُنالكَ، حينَ وَقفنَا مَعاً لِثَوانٍ
قَريبيْنِ منْ حُزنِ دجلَةَ،
هَلْ مَسَّنَا غَامضٌ، أَمْ هوَ الزَنجبيلُ؟
اعْتَرتْنا المواويلُ يا ابنةَ أُمّي
وَهيَّأتِ عيداً مِنْ العَفويةِ،
زَيَّنْتِ شَعْرَكِ بالرّيحِ، وَشوشةِ الرّيحِ وَالرَيحَانِ،
وَفي السَهْرَةِ ارتعشتْ شَفَتاكِ،
قَرأتُ تَهجُّدَ وقتِكِ بين نَشيديْنِ منْ حَيْرَةٍ وَحُبورِ
تَجلَّيتِ بالبابِ لي، حينَ أَطبقَ صَمتُ المكانِ،
وَصَارَ إلى وحدَتي كَاملاً
وَرأيتُ «إنانا» تَمورُ بِكُلّ زُهوركِ،
وَحدي إذنْ وَ«إنانا» نُواصِلُ ماءَ الحديثِ،
إلهي
إلهي
وَأَبعدَ في الإعترافاتِ وَالموْجِ نَذهبُ،
أَبعدَ في الأَرضِ،
لا أَدَّعي لَبناً، أَو حُقولاً لأَهديكِ،
لَستُ سوى عَابرٍ في السَبيلِ،
سَبيليَ وَعْرٌ،
أَجرُّ وَرائيَ سَقْفاً مِنَ الطّينِ، بَعضَ البنينِ،
وَلست أُنزِّهُني مِنْ جُنونٍ
سوى أَنَّ قلبي شَفيعي
وَأَنَّ القَصيدةَ دَاري الأَخيرةُ
أَكشفُني واضحاً وَحزيناً كأَيقونةٍ
مثلَما أنتِ وَاضحةٌ وَحزينٌ تُراثُكِ،
يَا ابنةَ هَذا النَسيجِ الشَفيفِ مِنَ الخَلَجَاتِ،
صَبيُّ النَشيجِ أَنا وَالخُطى!

مُنذُ أَوّلِ هَذا القَطَا
تَنقُشينَ لوقتي
سَماءَ تُوشِّينَها باللآلئِ،
تَطلعُ خَضراءَ هَذي التَواشيحُ،
خَضراءَ تحتَ سَلالِمِ صَمتي
تُضيئين بيتي
وَبيتيَ لَيسَ سوى غُرفةٍ في ضَواحي جوارِكِ،
يَخضرُّ إمَّا حَضَرتِ، وَيزهو السَريرُ بِلَمسِكِ،
يَزهو الفَضاءُ المُحدَّدُ، وَالمقعدُ المتوحِّدُ،
في المُستطيلِ الطَويلِ
وَيزهو بِوَردِ الأَصابعِ كُوبانِ حُلوانِ
كُوبانِ جدُّ رشيقينِ، بعدَ الشَذَى يُغدقَانِ عَلينا
نَبيذاً
وَمْانْجَا
وَيَسْتَسْكبانِ الأَغاني، الأَواني تَرِقُّ لِطَلَّتكِ الملكيَّةِ،
فَوضَايَ أَجملُ تحتَ رُموشِكِ،
لا يُربكُ الضَوءُ إذْ تَبزُغينَ أَثاثي المُبعثرَ:
هَذا القَميصُ المُعلَّقُ،
سِروَاليَ الجينْزُ،
تلك المنامَةُ زَيتيَّةً ببَياضٍ خَفيفٍ
عَلى طَرَفِ البابِ
دِشْدَاشَةٌ مثلَ فَرخِ يَمامٍ وَحيدٍ،

وَلا يُربكُ الضَوءُ إذْ تَبزُغينَ أَثاثي المُبعثرَ،
أَو كُتبي،
هَا هُنا وَهُنالكَ مَرميَّةً كزُهُورِ المحبِّينَ،
«طَوْقُ الحمامةِ» فَوقَ المِخدَّةِ،
وَ«ابنُ الخطيبِ» عَلى الرَفِّ ينزفُ زُخرفَهُ في المُوشَّحِ،

أَعدادُ فَصليَّةٍ لم تَعدْ تَصدُر الآنَ،
مَخطوطةُ بَعدُ ما دَخلتْ في كتابٍ
قَنانيَ فَارغةٌ
كيسُ تَبْغٍ لِغَليونِ قَلبي
نَوى بَلحٍ بابليٍّ عَلى وَرَقٍ أَصفرٍ..

تلكَ نَافذَتي: شَجَرٌ سَامِقٌ،
وَمَبَانيَ بيضاءُ،
منها أُطلُّ، أَرى اللَّهَ، وَالناسَ، وَالعرَبَاتِ
البناتِ الجميلاتِ
وَالفتيةَ النَزِقينَ
العَجائزَ في دَورهنَّ الأَخيرِ يُدلِّلْنَ كلباً،
وَيمشينَ ساعةَ هَذي الظَهيرةِ تحتَ هَواءٍ خَفيفٍ
مُغنّي الطريقِ بغيتارهِ يَسْحَبُ الأُغنياتِ بما
يَتَيسَّرُ مِنْ قِطَعِ النَقدِ،
آسيويينَ
بيضاً
وَسُوداً
وَمنْ كلِّ جِنْسٍ
أَرى كُلَّ هَذا العُبورِ،
وَقلبيَ تفَّاحةٌ في يَديَّ أَخافُ عَليه الزحامَ،
أَخافُ إذا فَلَتَ الآنَ أَو بَعدَ يَومينِ منّي
فتركلُهُ قَدمٌ، أَو
تجورُ عَليهِ قَرَنْفَلَةُ الإسْتواءِ،
أَخافُ هُنا وَحدتي
ثُمّ أُرخي السِتارةَ..

طَاولَتي بالبَنَفسجِ وَالكَاسيتاتِ وَمَنفضَةِ التَبغِ
تَذهبُ في الغيِّ إمَّا اسْتَندتِ عَليها
وَحَطَّتْ بأَنْفاسكِ الرّيحُ،
أَو
لامَسَتْ رُكْبَتاكِ شَراشيبَ شَرْشَفِها الأَبيضِ المُتهدِّلِ،
أيُّ دَلالٍ يُرقْرِقُني إذْ أَخفُّ إليكِ
أُطوِّقُ بالسَّاعدَيْنِ بَسَاتينَ خَصْرِك
بَينا تُعدّينَ وَجْبَتَنَا

نَكْهةُ الفلفلِ، النَعَنَاعُ، النَبيذُ الفرنسيُّ،
طِيبُكِ جُغرافيا
تَستوي شبهَ كَاملةٍ في فَضَاءِ المكانِ.
بَعيدٌ طَوافيَ،
أَرشفُ منْ مَاءِ زَمزمَ لا أرتوي
والطّيورُ تُحلِّقُ في بحَّةِ الصَوتِ.
في الطَّابقِ الثَالثِ الأُغنياتُ تسيلُ على
وَقْعِ مَركبةِ المُبهجَاتِ
بِأَعنَابكِ المُشتَهاةِ تَفيضينَ،
أَدخلُ في السَلْسَبيلِ الجَميلِ،
فَأَيُّ مَلاكٍ معي!

كَرَزاً يَتَساقَطُ ثَغرُكِ حَولَ يَديَّ،
وَعَيناكِ فَيروزتَانِ مِنَ الحزنِ،
فَيروزتانِ تُضيئانِ حُلكةَ أفريقيا
وَيتيمٌ أنا دُونَ هَذا البَريقِ،
يَتيمٌ يُسامِرُ قتلاهُ،
في آخرِ اللّيلِ يَحضرُ صَفْوَةُ أَهلي القَليلينَ،
يَحضرُ مَنْ ماتَ في غَابراتِ السِنينِ،
مِنَ الوَلَهِ المُرِّ، مَنْ شَاركوني السَبيلَ،
وَرَشّوا بمَاءِ الودَادِ كَلاميَ،
أَنتِ أَميرةُ هَذي العَشيرةِ،
عُكَّازُ هَذا الضَريرِ إلى سِدْرةِ المُنتهى
بَيتُ رُوحي الحَرامُ،
سِواكِ لِزَهريَ لا أرضَ، لا أُفقَ غيرُ بَراريكِ،
غيرُ سَمائكِ مَفْرودَةً لِطُيوري
إلى أَيْنَ نَمضي بنا!

لَيسَ في العُمرِ غَيرُ الذي ظَلَّ في العُمرِ،
بَعضُ النَواعيرِ،
كي لا نُسلِّمَ بالموتِ،
لمْ نَقطِفِ الحلمَ في عصرنا الزئبقيِّ،
انكَسرْنَا عَلى كُلِّ بوَّابةٍ قَبلَ هَذا الحِصارِ،
تَعالي نُعرِّي الظِلالَ،
وَنبكي عَلينا

يتيمان نحنُ، غَريبانِ في أُمَّةٍ،
وَاللسانُ وَحيدٌ كَأَرملةٍ
أَلجنونُ يَحفُّ بنا منْ جميع الجهاتِ،
ذَهبتُ إِلى أَرض كنعانَ بعدَ ثلاثينَ عاماً
مِنَ الهجراتِ لأَبحثَ عنْ بيتِ أُمّيَ،
عنْ جَارةٍ شَغَفَتْني قَديماً، فَلا
بَيتَ أُمّي وَجدتُ، ولا جَارتي في الحياةِ.
وقفتُ عَلى طَلَلِ الأَبجديَّةِ، ليسَ معي أَحدٌ
كَربلاءُ الجَديدةُ قدَّامَ عينيَّ،
أَنَّى تَلفَّتُ أَنتِ هُنا وَهُناكَ،
مَشينَا مَعاً
وَبَكينا سَوِيَّاً عَلى أَرضِ جِفْنَا
بكَينا عَلى الجَلزونِ
وَغزَّةُ قَفْرٌ أَسيرٌ،
نُديرُ عَلى الرُّوحِ أَقفالَهُ المُحكَماتِ،
وَمَا دَلَّنَا غيرُ هذا الهَوى
وَسْطَ حقلِ الخَرابِ الوَسيعِ، فَيا
أَيُّها المُتدَارَكُ، كَيفَ أُحيطُ بهذا الضَريحِ!

أُديرُ عَلى النَأْيِ كوباً وَأَشْرَبُ
ظَلّي معي الليلةَ، ظلّي معي
رُبما بَعدَ خَيطٍ قصيرٍ، أُولْولُ في الصَمتِ،
أَقرعُ أَجراسيَ النَائماتِ عَلى مَضَضٍ
وَبَطيئاً
بَطيئاً
أَعودُ إِلى عُزلتي في شَرائعِ كَنعانَ،
ظَلّي معي الليلةَ. النهرُ جَفَّ،
وَليسَ عَلى «أُوغاريتٍ» سِوى النَدْبِ،
يَا ابنةَ
ضِلْعي
وَأُختي
وَحيدٌ
أَنا
لمْ يَعدْ سَيِّداً لِلغُيومِ وَلا مَلِكاً أَو إِلهاً
لمْ يَعدْ «بَعْلُ» يَرعى الحقولَ،
وَيَستظهرُ العَاصِفَاتِ، فَلا زَرعَ طَالَ.
البلادُ إِذنْ دَخلتْ في الحِدادِ
الجَميلونَ غابوا
الجميلونَ كَالريحِ وَالأُغنياتِ ا لعَصيَّةِ غابوا
طَرقْتُ عَليهمْ فَما رَدَّ بَابُ،
فَظلّي معي.

هَذه اللَيلة اللنديَّة قاسيةٌ، وَكَبيتيَ بَيتُكِ خَاوٍ
وَنَمشي إِلى النَهرِ،
نَمشي إِلى «التَيمزِ»
هَلْ ضَاعَ في آخرِ اليَومِ قُرْطُكِ،
حينَ انتبهنا إِليه، وَكنَّا نَعودُ،
حَزِنَّا عَلى مَا يَضيعُ بِلا سَبَبٍ مِنْ يَديْنَا؟

تنَامينَ؟
نَامي لأَحرسَ هَذا النُعاسَ عَلى
لَيلِ أَهْدابِكِ المُسْبلاتِ،
وَنَامي،

دَعي إِبنَ حَزْمٍ بَعيداً عَلى حَالِه،
لاهياً في التواصيفِ،
نَامي
لأَحرسَ نَومَكِ فوقَ المخدَّةِ. نَامي
لعلَّ يُساعدُني المتدارَكُ في البَوْحِ،
لا بُدَّ لي أَنْ أُفاوِضَ هذا الظلامَ،
أُروِّضُني لِلكوابيسِ وَالعَادياتِ،
وَأَبحثَ عنْ هُدْنَةٍ مَعْ خُصومِيَ..

أَمسِ في السينمَا
وَبُعَيْدَ عِناقِ الأَصابعِ كُنَّا وَحيديْنِ جداً
سَأَلنا معاً مُخرجَ الفيلمِ عنْ مَخْرَجٍ
غَيرِ هَذا السَبيلِ،
وَغيرِ عَصا الجنسِ.
يا سيّدي، الرُّوحُ في غُربةٍ،
وَنُعلِّلُ بُعدَ سَماواتِنا بِالغُيومِ النَوازِلِ،

نَخلَعُ أقدامَنا
مِنْ تُرابِ الطُفولةِ وَالمنزلِ الأوَّلِ البِكْرِ،
يَا سَيّدي، خَلفَ صَحرائنَا صَحَراءٌ،
وَقدَّامَنا الصَحَراءُ، فكيفَ أردُّ النبالَ،
وكيفَ أقِيني مِنْ طَعنةٍ لا أَرى؟

يَصمتُ الفيلمُ عنَّا ويَبقى عَلى شَاشةِ العَرضِ،
يَبقى دُخانُ القطَارِ، نُحدِّقُ فيه وَيَنأى
وَشَيئاً
فَشَيئاً
يغيبُ،
يَغيبُ،
يَغيبُ،
وَأَمشي أفتِّشُ عَنْ خَيمةٍ لِعِمَادةِ قَلبيَ..

هَا جَسَدٌ لِكَلامي
وَلا وَعْدَ أَحفظُ عنْ ظَهرِ قَلبٍ لأَحكيهِ،
حَتى تَنامي
وَهَذا رُخَامي
تَفتَّحَ عنْ أَرخبيلٍ، نَوارسَ لا تَنتهي
وَفُصولٍ مِنَ الماءِ تمتدُّ،
هَذا رُخامي، الحَساسِينُ تَنْقُرُ عُشْبَ الضُلوعِ،
وَهَذا رُخامي
تَفتَّحَ عَنّي شِبَاكاً مُهَيَّأَةً لِلغَزَالاتِ،
سَرْواً بَعيداً
بَريداً إلى الصَيْفِ،
أَحْسَبُ أَنِّيَ أَحتاجُ أكثرَ مِنْ سَنَواتي
لأُنهي القَصيدةَ،
أَو
أُفْرِغَ المُتدارِكَ منْ وَزْنِهِ،
لِيَفيضَ حَدائقَ ما كُنتُ أَحلمُ يَوماً بها.

وَلأَنَّ فَواكهَ كَرمِكِ أَبعدُ ممَّا تُحيطُ يَدايَ،
لأَنَّ نُجومَكِ فَوقَ سَريري
أَساورُ منْ لازَوَرْدٍ، وَدَمعٍ،
حَبَتْها يَدُ الصَقْلِ وَالسَبْكِ،
بِالمسْكِ،
يُمرِضُني النَايُ،
يُمرِضُني أَنَّ رُمَّانَ قَلبيَ يَسَّاقطُ الآنَ،
أنّي تَنَاثرتُ في الصَبَوَاتِ،
وَبِتُّ أَسيراً، قُيودي الحَريرُ،
وَمنذُ الرَشيدِ، وَقفتُ عَليكِ نَشيدي
وَقفتُ عَلى شَفَقيَّاتِ عَينيكِ مُمتلكاتِ الحَنينِ،
إلى آخري.

هَيِّئي لَو سَمَحتِ الزُجاجةَ،
في الفَجرِ تَمضينَ، مَاذا هُناكَ بِبَرلينَ، أَو
أسْمَرَا!
هَلْ أَظلُّ هُنا
أَفلقُ الوَقتَ حَبَّةَ جَوزٍ بلا ثَمَرٍ،
لَيتَ فَجراً يلوحُ فَأَرتاحُ،
لَيلٌ عَلى شُرُفَاتيَ يُحصي تَفاصيلَهُ بِالدَقيقةِ،
لَيلٌ يَقولُ قَميصُكِ كَانَ هُنا
وَخَواتِمُكِ الذَهبيَّةُ،
سِلْسِلَةُ العُنُقِ،
حَاشِدَةٌ هَذه الغُرفةُ بِعَلاماتنا
وَجَليلٌ عَلى مَرْمَرِ الأَبنوسِ بُكَائيَ. بَعدَ غَدٍ
أَحتفي تَحتَ أَسوارِ هَذا الخَريفِ بِموتيَ،
بَعدَ غَدٍ،
لا يُقارِعُني أَحدٌ،
وَتَغيبينَ، أَطهو وَحيداً طَعاميَ،
أَرفُو غِيابَكِ بِالأُقحُوانِ،
أَعدُّ لِقَهوةِ يَومي مَراسمَ صَامِتَةً،
وَجَداولَ لا تدخلين معي
هَلْ أُشَيِّعُني منْ حُدودي
وَبعدَكِ، أجمعُ وَرْدَكِ
أَجمعُ هَذا النَزيفَ الطَويلَ، أَقولُ وَداعاً
لِقَرْميدِ كَنعانَ،
يَا أَيُّها المُتَدارَكُ، دَعْني إلى بَرْزَخي.

لندن (فلسطين) حزيران ١٩٩٥